

خواطر من الحج عند بيت المولي

تأليف: علي الكوراني

. . . كانت ليلة في السيارة إلي مكة أين منها النهار. . . فيها نقاط التفتيش. وفيها طعام المحرمين، وفيها بعض الأحاديث والأسئلة عن أحكام الإحرام، ولكنها جميعا اكتست بجلال الخشوع ونور السكينة. . حتي ذكرهم للحسين عليه السلام صار من جو التلبية والإحرام. فقد عاشوا معه محرماً في طريقه إلي مكة. ثم محرماً في كربلاء يلبي فيقول:

تركت الخلق طراً في هواكا / و أيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعني في الحب إربا / لما مال الفؤاد إلي سواكا

وحتي إغفاءات الحجاج في آخر الليل كانت هادئة ناعمة، تقول الروح للجسد فيها: خذ راحتك، نم في هذه الطمأنينة الإلهية فأنا وملائكتك يقضي. . فيغفو الجسد مطمئناً حتي إذا سمع التلبية أفاق، ولبي مع روحه ورفقائه والملائكة. .

هنا أول مكة. . ونظر الحجاج فرأوا شارعا ممتداً وأمامه جبال ينبعث من ورائها بهاء نور. . فرفعوا أصواتهم بالصلاة علي النبي وآله. . .

هدأت الأصوات حتي عن التلبية. فقد وصلوا إلي حرم المولي. وتطلعت إليه الأنظار والقلوب. . تريد أن تري كل شيء في مكة وتتحمسه. حتي المباني والشوارع والجبال والهواء. . .

بسم الله وبالله. ومن الله وإلي الله. . ما شاء الله، وعلي ملة رسول الله، صلي الله عليه وآله. وخير الأسماء لله. والحمد لله. .

السلام علي رسول الله محمد بن عبد الله. .

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. .

السلام علي أنبياء الله ورسله. .

السلام علي إبراهيم خليل الرحمان. .

السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين. .

اللهم افتح لي أبواب رحمتك. واستعملني في طاعتك ومرضاتك. واحفظني بحفظ الايمان أبداً ما أيقيتني، جل ثناء وجهك. .

الحمد لله الذي جعلني من وفده وزواره، وجعلني ممن يعمر مساجده، وجعلني ممن ينجيه.

اللهم إني عبدك وزائر في بيتك، وعلي كل ما أتى حق لمن أتاه وزاره، وأنت خير ما أتى وأكرم مزور. فأسألك يا الله يا رحمان بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وبأنك واحد أحد

صلواتك عليه

وعلي أهل بيته. □ .

يا جواد يا كريم أسألك أن تجعل تحفتك إياي بزيارتي إياك أول شيء تعطيني فكاك رقبتي من النار. .

وتقدم الحجاج في القسم المسقوف من الحرم، فنظر أكثرهم لأول مرة إلي الكعبة الشريفة تقوم في وسط ساحة المسجد، ويموج من حولها نهر الطائفين المقدس. . فقرأ لهم القارئ دعاء النظر إلي الكعبة وترجمه لهم.

" الحمد لله الذي عظمك وشرفك وكرمك وجعلك مثابة للناس وأمناً مباركاً وهدى للعالمين "

وقال لهم اجلسوا، فجلسوا. ثم قال ارفعوا أيديكم، وقرأ لهم:
اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي، وأن تتجاوز عن
خطيئتي وأن تضع عني وزري. الحمد لله الذي بلغني بيته الحرام. .
اللهم إني أشهد أن هذا بيتك الحرام الذي جعلته مثابة للناس وأمنا مباركا وهدى
للعالمين. .

اللهم العبد عبدك، والبلد بلدك، والبيت بيتك. . جئت أطلب رحمتك وأؤم طاعتك، مطيعا
لامرك، راضيا بقدرك. . أسألك مسألة الفقير إليك الخائف من عقوبتك. .
اللهم افتح لي أبواب رحمتك، واستعملني بطاعتك ومرضاتك. .
بكي الحجاج لهذا الدعاء بنسب من البكاء، ثم قاموا الصلاة ركعتي تحية المسجد. .
أما الدكتور فقد اتصل بكأوه وهو جاث علي ركبتيه وقد نكس رأسه. وبقي أحمد إلي جانبه
ينتظره فطال بكأوه. . قام أحمد يصلي، وبقي الدكتور جالسا مطرقا، ينظر حينا إلي الكعبة
والطائفين والمسجد، ثم يأوي إلي صمته الطويل. . ودموعه. .
أكمل أحمد صلاته ودعاهه. والدكتور ما زال علي حاله. . فذهب وجاء بأربعة أكواب ماء قدم
إلي الدكتور واحدا منها وقال:

هذا من ماء زمزم يادكتور.

شكراً لك يا أحمد، وهل يصح أن نشرب هنا؟

نعم، يا دكتور يستحب، ولكن اسمح لي قبل أن تشرب أن أقرأ لك الدعاء المستحب. وقرأ
له: "اللهم اجعله علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داءٍ وسقم".
فقرأ الدكتور الدعاء وشرب وحمد الله، فقال له أحمد.
ونحن في بيت الله، أحب أن أهدي لك هدية يا دكتور.
شكراً، يا أحمد ما هي؟

سته ورقة وقال:

خطبة أمير المؤمنين عليه السلام حول الكعبة التي استشهد عالم القافلة بجزء منها. .
رأيت الكعبة الشريفة فهل تحب أن أقرأ لك بعضها ريثما يأتي الرفقاء. . ؟ .
شكراً، تفضل إقرأ.
وقرأ أحمد:

" ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلي الآخرين من هذا
العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس
قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً وأقل نائق الدنيا مدرأ، وأضيق بطون الأودية فطراً.
بين جبال خشنة، ورمال دمتة، وعيون شلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خوف ولا حافر ولا
ظلف.

ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمننجد أسفارهم، وغاية
لملقي رحالهم. تهوي إليه ثمار الأفئدة، من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة،
وجزائر بحار منقطعة، حتي يهزوا مناكبهم ذللاً يهللون لله حوله، ويرملون علي أقدامهم
شعثاً غبراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم. .
ابتلاء عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته ووصولاً
إلي جنته.

ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم
الأشجار، داني الثمار، ملتف البني، متصل القرى. بين برة سمراء وروضة خضراء، وأرياف
محدقة، وعراض مغدقة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء علي حسب
ضعف البلاء.

ولو كان الاساسُ المحمولُ عليها، والأججَارُ المرفوعُ بها، بين زمردة خضراء، وياقوته حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع، مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس. .

ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، وبيئتهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم. . وليجعل ذلك أبواباً فتحةً إلي فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه."

أكمل أحمد قراءة النص والدكتور يستمع بإصغاء، فقال بصوت منخفض وهو يهز رأسه:
- أين كنا عن هذا الفكر، حقاً إن الثقافة الإسلامية مظلومة، كما يقول الشيخ الطبري. . يا أحمد لقد تأكد لي أن أحداً لا يكون إنساناً حتي يكون عبداً ذليلاً لله تعالى، متواضعاً للطيبين من عباده، وأن أكبر الأدوات التي يستعملها إبليس لمنعه من ذلك هي ثقافة الغربيين المادية. . ساعدني يا أحمد لكي أخرج التكبر من قلبي وأكون عبداً لله ذليلاً، نعم ذليلاً. . برغم إبليس، فقد حاول

بجغرافية مكة

وشوارعها وبنائها، وجدران الحرم وبنائه. . فقلت له: هذه الغرفة المربعة هي بيت الله في الأرض، وسواء كانت في أقصى الشرق أو الغرب أو في مضيق جبلي يتسع لنفر واحد، أو جعلوها في سرداب تحت الأرض. . فالأمر لا يتغير منه شيء. . إنها بيت الله ومركز هذه الأرض، وأريد أن أطوف حولها وأتبرك بها، وأصنع كل ما أمرني به رسول الله صلي الله عليه وآله. أشكرك يا أحمد، فكانك عرفت أنني بحاجة إلي هذه الكلمات العظيمة. . لقد قررت أن لا أشغل نفسي بشيء إلا بالأعمال المحددة الواجبة علي. . أريد يا أحمد أن أكون واحداً منكم أتوجه إلي الله تعالى وأطوف حول بيته وأصلي، كما تفعلون. .

- نعم القرار يا عم، وأسأل الله أن يتقبل منك، فالوقت الآن لاداء المناسك، وعندنا عدة أيام لزيارة المسجد ومعالم مكة والتفكير والأحاديث. .

والتزم الدكتور بقراره، ودخل مع الموكب الخراساني في سبيل الطائفين من شعوب العالم، ولم يسمح للأفكار الطارئة أن تشغله. كان يقول في نفسه أنا الآن أطوف حول بيت الله. . إنها حقيقة عظيمة، يجب أن أعيشها. . كل شيء هنا غني بالمعاني والافكار، ولكني أنا فقير لأن أطوف حول بيت ربي وأناحيه. .

هل يمكن لانسان أن يمشي في سوق مزدحم بالناس وهو يرتجل قصيدة وجدانية. . ؟
أما إذا كان عاشقاً فنعمة. .

دخلوا في خضم الطائفين حول البيت، وكانوا قسموهم إلي مجموعات مع كل واحدة منها مطوف. . ولكن الفراشة العاشقة تعرف كيف تحوم حول السراج، والخراساني يعرف متي يتابع دعاء المطوف، ومتي يدعو من ظهر قلبه بل من قلب قلبه، بكلمات بالعربية الفصحى، ودموع فوق اللغات. .

المسلم في بلدنا يزور قبر الشهيد فيلقي له القصيدة. . وللإمام المعصوم يرتجل الشعر وينثر الدموع وللنبي يحمل المعلقة في يد والقلب في يد. .

أما وقد وصل إلي بيت المولي العظيم وبدأ طوافه، فهنا وقت كل القصائد ونثار الروح. . حتي لو قصروا في واجبه فلم ينظموا المطاف، وحتى لو ازدحم الناس بمئات الالوف. . أو ليسوا يسمحون له بأن يضع خطواته معهم، فشكراً لهم. . وإذا دفعه الافريقي واليماني والبدوي، فغفر الله لهم. . كلهم ضيوف المولي يطوفون حول بيته. .

كل الامور الأخرى ثانوية أمام قضية هذا المسلم القادم من بلاد نائية عند الكعبة. .

القضية أنه الآن حيث كل شيء. .

حيث آدم وحواء يطوفان ويتوبان. .

وحيث إبراهيم وإسماعيل يحدّدان البناء .
 وحيث موسى وعيسى يحجان .
 وحيث محمد صلي الله عليه وآله يولد وينشأ، ويبعث، ويظلم، ويهاجر، ثم يعود فاتحاً .
 وحيث خديجة والزهراء . وعلي يكسر الأصنام . والحسين يشد الرحال إلي كربلاء . وكل الأئمة والصحابة والعلماء .
 وحيث المهدي يحج كل عام، وينتظر ذلك العام ليطلق ثورته من هنا، من عند هذا الركن، من عند باب الكعبة .
 هنا يوجد الجميع، لأنه بيت رب الجميع .
 وهنا كل شيء من الماضي والحاضر والآتي . لأنه بيت رب الكل .
 الخطوة هنا بوزنها ذهباً . والهواء بالمشاقيل، لأنه أصلاً للروح قبل الرتتين . والكلمة لا تقدر بثمن، لأنها تولد في الضوء وتلقاها ملائكة الكعبة حارة طازجة، فيصعدون بها إلي أعلي .
 ألا تري عروجهم ونزولهم من عند أركان الكعبة الأربعة، بمحاذاة أعمدة النور الصاعدة إلي السماء السابعة، تصعد أفواجهم بكلماتنا وطلباتنا، وتعود محملة بالهدايا والبشائر .
 أما تراهم يجمعون دموع الطائفين في قوارير ليسقوا بها وروداً في حدائق عند العرش . .
 وعلي نغم وحبیب قلوبنا ينظمون هيمنتهم . وعلي نمط خفق أرواحنا يخفقون أجنحتهم .
 وانتظمت قافلتنا في نهر الطائفين . تغتسل بالنور، وتستمطر النور، وتفجر قلوبها بالنور والدموع . كل منهم قرأ مع المطوف، وقرأ من قصائده هو .
 وماذا أحمل في أدب الشعوب من شعر المحرمين الطائفين حول بيت ربهم، ومن إلقائهم .
 وحدهم ملائكة الله جمعوا ديوانهم في مجلدات، ولم توزع نسخه علي أهل الأرض، ولم يصلنا منه إلا القليل من كلمات آدم، ودعاء إبراهيم، وتلبية موسى وعيسى، ومناجاة النبي وأهل بيته صلي الله عليه وآله وكبار الصحابة والفقهاء والعارفين .
 في كل يوم للمسلمين مناجاة وأدعية هند الكعبة، ولكن موسم الحج هو موسم القصائد الجارة، تحمل ذوب الروح وعبيرها .
 بدأ أحدهم بمناجاة زين العابدين عليه السلام .
 إلهي عبيدك ببابك، سائلك ببابك فقيرك ببابك، مسكينك ببابك . اللهم البيت بيتك، والحرم حرمك، والعبد عبدك . " فلم يستطع أن يواصل قراءتها لأن لغة البكاء منعتة من الاسترسال في التحدث بلغة الدعاء، لجلال الموقف وهيبة المشهد .
 وتتابع الأشواط السبعة وانتهت، وتواصلت فيها من الحجاج المناجاة والدعوات .
 ولكن أحداً منهم لم يشعر بري ظمئه، فالقضية مع الله عند الكعبة لا يفني لها طواف يذهب نصفه في الزحام، وبعضه في الإنهار بجلال المشهد لأول مرة . فلا بد من العودة، ولا بد من ساعات طوال للطواف والدعاء والصلاة .